تاريخ بابل واشور

لجناب جميل افندي نخلة المدور (تابع ما قبله)

ولما انقضى عهد هورابي تداول سريرهُ ملوك كثيرون قد اشتبهت اسماؤهم وتداخلت انباؤهم فتعذر تخليص بعضها من بعض ولذلك اضربنا عن تتبُّع اخبارهم لقلة جدواها وعدم مصيرها الى حقيقةٍ قاطعة. وفي عهد اولئك الملوك اخذت دولة الكلدان في الانحطاط والانحلال وزحفت عليهم الجيوش المصرية فكانت بين الفريقين وقائع متواترة نحو قرنٍ من الدهر وذلك من سنة ١٦٦٥ قبل الميلاد الى سنة ١٥٥٩ . وكان المصريون في هذه البرهة كلها منبثين في مملكة الكلدان لا تخلو من شراذم منهم يسطون في البلاد ويعيثون في اهلها الى ان وفد توتمس الاول احد مشاهير ملوك مصر الى كركميش في السنة المذكورة وعبر الفرات برجاله وزحف على بابل فنازلها والقى الحصار على بروجها فاستفتحها عنوةً ودخلت البلاد في طاعته ولبثت تؤدّي الجزية ولما توفي توتمس تمرد الكلدان على ملوك مصر ونبذوا طاعتهم حتى كان عهد توتمس الثالث فجدّد عليهم الغارة وزحف بجنوده حتى اتى بابل فحاصرها واخذها واثخن في اهلها وانصرف عنها ظافرًا وعند انصرافه ولّى عليها من يثق به من اهلها بعد ان اخذ عليه العهود والمواثيق فما زال الامر فيها للفراعنة من بعده يولون عليها من شاءوا الى سنة ١٣١٤ قبل الميلاد فكانت مدة ولايتهم على بابل وما يليها مئتين وخمسًا واربعين سنةً. وكانوا في هذه الاحقاب كلها يأتون باولاد الولاة الذين يولونهم بابل الى مصر فيلقنونهم من الدين ويؤدّبونهم بآدابهم وعاداتهم حتى اذا توفي احد آبائهم اتخذوا من اعجبهم منهم فعقدوا له مكان سالفه كما هو مقرّر في الآثار المصرية . وكان اذا تمرّد احد هولاء الولاة وابى حمل الجزية الى مصر خلعه الفراعنة عن خطته وقلدوا الامر من هو اهلٌ له .

فاصبح ملوك بابل من خلفاء هورابي واسمي داجون لا يملكون الاّ على اعمال بابل فقط وصاروا في منزلة ملوك نينوى وسنجار وايلاّسر . وكان عدد من ملك من البابليين تحت إمرة الفراعنة تسعة ملوك ذكر بيروسوس انهم من اصلٍ عربيّ غير انهُ لا يعلم هل كانوا من نفس العرب سكان الجزيرة ام من اهل سورية والكنعانيين لان اسم العرب كان يطلق قديمًا على كل من كان عربيّ المنطق وكانت العربية اذ ذاك شائعةً في اقطار آسية الغربية كلها . والذي في رأي اكثر المحققين انهم كانوا من العرب السوريين بدليل عبادتهم لسُوَخ وهو من الآلهة التي لم تعرف الاّ عند السوريين

ويُذكر في جملة من وَلِيَ بابل من ملوك العرب ثلاثة ملوك احدهم يقال له بورنبوریاس والثاني كراهرداس والثالث نزيبوكاس وهم الذين اضرموا نيران الحرب بين بابل واشور فلم ينطفئ سعيرها حتى اخضعهم تغلث سيدان سنة ١٣١٤ واستخلص المملكة من ايدي الفراعنة على ما سبق

الالماع اليه فانثلّت عروشهم وتبددوا في الارض . واستعمل سمدان على بابل رجلاً من اصحابه واستمرّت بابل تحت امرة الاشوريين يتعاقب عليها الواحد بعد الآخر الى منتصف القرن الثاني عشر فنهض واحدٌ من الكلدان يقال له بين بلّادان وحشد جموعاً كثيرة وزحف على اشور فواقعها وظهر عليها ورجع عنها ظافراً غانماً فاعتزّ شأنه وارتفعت كلمته ونفذ سلطانه في الاقاليم الكلدانية كلها . ولما تمهد له امر المالك اقبل على تحصين بابل وعزّزها بالاسلحة والرجال وبنى على مدينة نيبورسورا سماهُ نيويت مرودَخ . وفي تلك الغضون توفي ملك اشور الذي كانت الواقعة بين بلّادان وبينه فقام بالامر بعدهُ آدار بلّاسر فجيّش جيوشه وخرج لقتال بلّادان فاستعرت بينهما الحرب واتفق في تضاعيف ذلك ان توفي بلّادان وتوفي آدار بلّاسر ايضاً دون ان يتوجه النوز لاحدهما فخلف بلّادان نبوخذرصّر وقام مكان آدار بلّاسر اشور زيسي وقامت معهما الشرور والفتن وما زال دابهما ذلك حتى ملكا كلاهما في حديث قد ذهبت عنا تفاصيله فاقتصرنا منه على ما اوردناهُ

ولما كانت سنة المئة والالف قبل الميلاد وفد مرودخ دنياكي الكلداني على اشور بجموعه واقام الحصار على هيكالي فدمّرها عن آخرها وكان على اشور اذ ذاك تغلث فلّاسر وكان ملكاً عالي الهمة شجاعاً فاتكاً فألّب جيشه وبرز لقتال دنياكي فالتحمت الحرب بين الفريقين زماناً حتى كانت الغلبة لاشور فولى جيش الكلدان ادبارهم بعد ان قتل منهم خلقٌ كثير وكانت آخر نوبة زحفوا فيها على اشور الى ان نهض بعليزبس الكلداني وتحالف مع ارباش الماديّ وجيّش على نينوى فاخذها عنوةً وتركها قاعاً صفصفاً وذلك سنة ٧٨٨ قبل الميلاد وقد اسلفنا طرفاً من هذه الواقعة في القسم الاول من الكتاب وسنعود الى تفصيلها ان شاء الله تعالى

ذكر الدولة الاشوريّة الاولى

اما تاريخ الدولة الاشورية فلم تزل اوائله غائبة تحت ظلمات الابهام لا يكاد يوقف منها على حقيقة يوثق بها ولا سيما ما كان منها بعيد العهد في ازمان نشأتها وقد تباينت اقوال المؤرخين في موّسس هذه الدولة ومشيد اركانها الاول فمنهم من قال ان نمرود هو اول من اسس مدينة بابل ثم خرج الى نينوى فبناها وقد سبق لنا كلامٌ في هذا المبحث عند ذكر مدينة نينوى يغني عن التكرار هنا . وذهب غيرهم الى ان باني نينوى هو نينوس بدليل تسميتها وظاهرهُ غير بعيد من الصحة لولا معارضة النصوص له فقد ورد في سفر الخليقة ان بانيها اشور بن سام على ما اسلفناهُ هناك . واكثر ارباب البحث في هذا العصر على ان بانيها مجهول اوانهُ لا يتعين لها بانٍ بعينه وانما هم جماعة من اهل تلك الارض ضربوا فيها مساكنهم ثم اخذوا يشيدون فيها المباني شيئاً بعد شيء وتوطنوها

وجعلت العمارة تتكاثر فيها كلما تكاثر اهلها واتسعت ارزاقها شان غيرها من سائر الامصار. قد قلت والاظهر ان اولئك القوم كانوا شرذمة من الكلدان نبت بهم اوطانهم فخرجوا الى تلك الارض ولما استقروا في موضع منها ولوا امرهم رجلاً منهم لقبوه بأشور وهي كلمة بمنزلة الفيل عند العرب ثم اخذوا في بناء هذه المدينة وأووا اليها وتداولوا ملكها وكان من امرها ما نحن فيه . يشهد لذلك اننا نرى اكثر الاشياء التي تواطأ عليها الاشوريون من نحو العقائد والعوائد واللغة واشكال الابنية وغير ذلك هي نفس ما عند الكلدان ولا نرى كذلك بقية الامم المجاورة فانها ان لم تكن ذات اصل واحد لم تكد تتوافق الا في الشيء القليل مما لا يقضي بينها بهذا الحكم. وفي هذا الراي موافقة لمقال مؤرخي الكنيسة من ان اشور وقومه لبثوا زمانا متغالطين للبابليين في ارض الكلدان ثم فارقوهم لظلم احسوا بوا واستقلال سموا اليه فصح ان اصل الاشوريين كلداني استدلالا ونقلا والله اعلم بالصواب

ثم ان نص الكتاب لا يورد من هذا القبيل الا لمعة خفيفة وبقي تاريخ اعقاب اشور وما آل اليه امرهم في تقلب ملكهم كل ذلك مجهولا الى هذا العهد . وقصارى ما يعلم من شانهم انهم افضى بهم حول الدهر الى الوقوع في قبضة ملوك الكلدان الا ان هذا النبأ عار عن التفاصيل غفل من بيان علل سقوطهم وتاريخ انحلال ملكهم ووقيت الزمان الذي لبثوا فيه تحت امرة الكلدان الى حين خروجهم من ربقتهم . وقد يستخلص مما ذكره الكتاب من ان الله جل وعلا لما اراد عقاب بني اسرائيل على معصيتهم اسلمهم الى كوشان رشعتايم ملك ارام النهرين ان الاشوريين كانوا في ذلك العهد تحت ربقة الكلدان لانهم لو كانوا مستقلين في ملكهم لاسلم بني اسرائيل اليهم لينفذ وافيهم نقمته كما كان من شانه تعالى ان يسلطهم عليهم كلما اراد نكالهم على ما سنبينه في الكلام على اسرحدون وشلمناسر وبختنصر وغيرهم. ومهما يكن من ذلك فالذي يفهم من روايات المؤرخين ان الاشوريين مضى عليهم القرن الثامن عشر والسابع عشر والسادس عشر قبل المسيح وهم في قبضة الكلدان يذوقون من انواع الذل واصناف الجور ما لا طاقة لهم به حتى ضاقت صدورهم وعيل اصطبارهم فاخذوا يسعون في التماس من يدبهم حتى اذا كادوا يظفرون بالنجاة انقضت عليهم جيوش مصر فاذاقتهم البلاء وسامتهم الخسف والرق وما زالوا في مثل تلك الحال من ضغط المصريين عليهم وغزوات البابليين لهم من كانوا يلون تحت امرة الفراعنة على ما سبق الى ايام اليو حتى انتهى القرن الخامس عشر ثم تلاه القرن الرابع عشر فنهض في اوائله رجل منهم من اهل الشدة والنجدة يقال له تيغلث سمدان المقدم ذكره قبيل هذا فصاح في قومه الاشوريين وجرد منهم خلقا لا يحصى وزحف بهم على بابل فنازلها وحاصرها حصارا شديدا الى ان افتتحها عنوة سنة ١٣١٤ واباد اهلها قتلا واسرا

وتغلث فلاسر هذا الذي يسميه الفرس بنبوس ويجعلون سميراميس زوجة في حديث

طويل نلخصهُ هنا عما رواهُ اكتزياس طبيب ارتكزرسيس ملك فارس عن العجائب التي كانت في بلاط الفرس بفرسبوليس على ما سلف بيانهُ في اوائل الكتاب وعن اكتزياس هذا اخذ اكثر المؤرخين. ومن تاريخهِ فيما نحن فيهِ ما رواهُ ديودوروس الصقلي من كلام يقول فيهِ ما معناهُ ولما انحطت احوال البابليين اثر المواثبات التي وقعت ببابل ايام دخلتها العرب نهض نينوس الاشوري لانقاذ قومهِ من ربقة الذل فشرع في حشد الجنود وجمع الاقوات واتخاذ العدد وزحف بجيشهِ الى بابل فامتلكها بعد حصار عنيف وانتخن في اهلها وقتل ملكها وحبس امرأتهُ وبنيهِ وبناتهِ وسائر من ينتمي اليهِ. ثم انصرف عنها فعطف على ارمينية وفي عزمهِ ان ينزل بها ما انزلهُ ببابل فازدلف اليهِ ملكها بما عندهُ من اصناف الكنوز والذخائر الكريمة فتقبلها نينوس من يدهِ وانصرف عنهُ راضيًا. ثم مضى بجنودهِ الى مادي وكان عليها يومئذٍ ملك جبارٌ من ارباب الصولة والبأس فأنف من التسليم الى نينوس والانقياد لطاعتهِ فواقعهُ نينوس وقهرهُ ثم قبض عليهِ وصلبهُ. وبقي نينوس على مثل تلك الحال نحوًا من سبع عشرة سنة يغزو في البلاد ويفتح الحصون والمعاقل ويدمر الاسوار والمدن حتى استولى على جميع البلاد الواقعة ما بين البحر المتوسط وبحر الخزر ونهر الهند وخليج فارس. قال ولما قفل نينوس الى بلادهِ بالغنائم والسبايا همَّ باتخاذ مدينة يجعلها مبادةً لهُ ولاعقابهِ لايقع في الاماكن ان يكون لها مثيلٌ على تراخي العصور وتوالي الاحقاب فاقام فيها الابنية ورفع عليها سورًا منيعًا شيَّد عليهِ بروجًا باسقة الارتفاع ونادى بالناس الى سكنى المدينة فاجتمع اليها الوف من الرجال والنساء من اشراف الناس وصعاليكهم وتواردت اليها اسباب الثروة والعمران فالبثت الاَّ زمنًا يسيرًا حتى صارت لا تدانيها مدينةٌ في الارض. وقال وبعد ان تمَّ بناء السور هبَّ نينوس للمسير فجنَّد جنودهُ وارتحل بهم الى بقتريانا عاصمة بقتريانا وكان قد قصد هذه المدينة من قبل واضرم عليها لظى الحرب زمنًا ثم تراجع عنها عن عجز وخسران فلما عاد اليها في الكرَّة الثانية لبث تحت اسوارها امدًا طويلاً حتى ضعف رجاؤهُ في النصر وتخوَّف ان يفرغ من عندهِ الزاد فتكون في ذلك هلكتهُ وفناء جيشهِ. فحدث في تلك الايام ان الاله الكبير انفذ الى نينوس امرأة قائد من قوادهِ اسمها سميراميس فاعلمتهُ بدسائس يتمكن بها من الاستيلاء على المدينة ففعل كما اشارت فانفتحت لهُ ابواب البلد ودخلها عنوةً ووضع السيف في اهلها فتعزَّز سلطانهُ وقويت شوكتهُ في سائر الاقطار. ومذ ذلك الحين هام نينوس في حب سميراس وكلف بها كلفًا لا مزيد عليهِ وعلم بذلك بعلها القائد ورأى انهُ لا يقوى على مقاومة الملك ولا يصبر عن امرأتهِ فخنق نفسهُ ومات شر ميتةٍ. فوقع موتهُ عند نينوس موقعًا حسنًا ولم يلبث ان امر فعُقِدَ لهُ على سميراميس وتزوَّجها. انتهى بتصرُّف

(سنأتي البقية)